

هل حقا أن «الأنتى هي الأصل»؟

كتاب نختلف حوله ونتفق على احترامه



نوال السعداوي: أنا امرأة غير عادية

أعمالها عبارة عن قصص قصيرة بعنوان "تعلمت الحب" في عام 1957، وأولى رواياتها هي "مذكرات طبية" عام 1958. صدر لها أربعون كتابا أعيد نشرها وترجم بعضها لأكثر من عشرين لغة، وتدور الفكرة الأساسية لكتابات نوال السعداوي حول الربط بين تحرير المرأة والإنسان من ناحية وتحرير الوطن من ناحية أخرى في نواحي ثقافية واجتماعية وسياسية.

في عام 1972، نشرت أول أعمالها غير القصصية بعنوان "المرأة والجنس" مؤثرة بذلك عداء كل السلطات السياسية والدينية. هذا الكتاب كان من أسباب فصلها من وزارة الصحة. ومن أعمالها أيضا "الوجه العاري للمرأة العربية" وهو تحليل كلاسيكي لظاهرة اضطهاد المرأة في العالم العربي. تضمن بين صفحاته وصفا لختان الكاتبة وهي في سن السادسة؛ العملية التي تمت على أرض حمام العائلة، بينما أمها تنظر إليها تبتسم وتضحك.



قد يستمر الخلاف حول نوال السعداوي وإرثها الروائي والفكري، وربما ينفض معجبون ورواد من حولها، تماما كما انفض معجبون وبافكار ماركس ولينين من حولهما. ولكن، بالتأكيد، ستبقى أعمالها، الأدبية والفكرية، الإنسانية ما بقيت البشرية، سواء اتفقتا على أن المرأة هي الأصل أم الفرع، وستبقى أعمالها، الأدبية والفكرية، ومن بينها "المرأة والجنس"، و"الأنتى هي الأصل" تحتل مكانها في الذاكرة الإنسانية حية لا تموت.

الحديث عن طرف واحد هو الأصل. كل منهما، المرأة والرجل، هو الأصل. لفهم ما يجري داخل رأس نوال السعداوي، علينا أن نتحول إلى فرنسا، بالتحديد عام 1949، وهو العام الذي طرح فيه بالأسواق كتاب "الجنس الآخر" أو "الجنس الثاني"، للمفكرة الوجودية الفرنسية سيمون دي بوفوار.

طرحت سيمون في الكتاب عرضا شاملا حول الطريقة التي تعاملت بها المجتمعات مع النساء عبر التاريخ، وغالبا ما اعتبر العمل نقطة انطلاق لموجة ثانية من النسوية. وضع الكتاب، من قبل الفاتيك، على قائمة الكتب المحرمة، إلى أن ألغيت القائمة عام 1966. تقول سيمون دي بوفوار "على المرأة أن تتخلص عن الأساطير والخرافات والعقائد التي تتخذ شكل المقدس، والتي مكنت الرجل الأبيض من اضطهاد المرأة والسيطرة عليها. المرأة إن أرادت أن يكون لها وجود حقيقي كامرأة عليها أن تتخلص عن الأنوثة؛ لأنها مصدر ضعف المرأة، وتتخلل عن الزواج؛ لأنه يمثل أكبر قيد لها، وأيضا أن تتخلص عن الأمومة".

رؤية شاملة للتغيير

ظهرت الحركة النسوية (الغيمينيوم) في أوروبا كرد فعل على ما تعرضت له المرأة في أوروبا عبر تاريخها الطويل، الذي سادت فيه نظرة الرجل الأوروبي الدونية للمرأة، فجاءت الحركة النسوية لترفض عالما هو من صنع الرجل، ولتطالب بعالم جديد تكون فيه الصدارة للمرأة، ويكون من صنعها.

ثارت المرأة في الفكر الغربي المعاصر على النصوص والتفسيرات الدينية، وأرجعت ادعاءات ورموز الفكر النسوي هذه الصورة المشوهة للمرأة إلى خضوع هذه الحضارة لفكر ذكوري أبوي نابع من العقائد والشرائع الدينية. سعت المرأة إلى تقديم فكر نسوي جديد وبديل، ولكي يؤدي هذا الفكر ثماره كان على المرأة أن تتخلص عن القيود (العقائد والشرائع والأعراف الدينية) وتعلن تمردا عليها. بعد ثمانين سنة من طرح كتاب سيمون دي بوفوار، طرحت نوال السعداوي كتابها "الأنتى هي الأصل". وإن التقت الأنتى على لوم رجال الدين، إلا أن سيمون لم تسع لإثبات أن المرأة هي الأصل.

الموجة النسوية الثانية تلتها موجة ثالثة، وموجة رابعة، هي تطور حديث داخل الحركة النسوية، بدأت عام 2008 واستمرت حتى يومنا هذا. أما كيرا كوشرين، مؤلفة كتاب "كل النساء المتصدرات: صعود الموجة الرابعة من الحركة النسوية"، فتربط بين الموجة الرابعة للحركة النسائية وبين التكنولوجيا. وتعرف الباحثة ديانا دياموند، الموجة الرابعة بأنها حركة "تجمع بين السياسة وعلم النفس والروحانيات في رؤية شاملة للتغيير". بدأت نوال الكتابة مبكرا، فكانت أولى

إلا أن زواجهما دام أكثر من أربعة عقود، وانتهى بمفاجأة أكبر. طلق شريف نوال وهو في عقده التاسع، وتزوج من الكاتبة أمل الجمل، وكانت في عمر أولاده.



شريف حطّات
نوال امرأة لا تستطيع أن تتعامل مع أي ضعف
سيمون دي بوفوار
يجب التخلي عن الأساطير التي تتخذ شكل المقدس

"نسبة 95 في المئة من الرجال خائفون"، هكذا تطلق نوال حكمها القاسي على الرجال، حتى من اعتبرته في البداية استثناء وعاش إلى جانبها 43 عاما. مسلحة بتلك المعلومة، ويقنعها بانها لا تقول سوى الحقيقة، شنت نوال حملة، ليس دفاعا عن حقوق المرأة، ولكن لإثبات تفوق المرأة على الرجل، وكان ذلك واضحا في عنوان كتابها "الأنتى هي الأصل". كان هناك الكثير ممن المؤيدين لها، مثلما كان هناك الكثير ممن استنكروا حكمها، وأروا فيه عقدة نقص تسيء للمرأة أكثر مما تنصّر لها. ولإثبات وجهة نظرها، راحت نوال تنبش في التاريخ، بحثا عن مؤيدات، غالبا ما تلوي عنقها، لتثبت صحة أقوالها، مؤكدة أن شعوب ما قبل التاريخ كانت المكانة الأولى فيها للمرأة، بينما كان الرجل تابعا لها. ولم يتغير هذا الحال إلا مع ظهور الأديان.

وتسوق نوال مثلا الديانة اليهودية، حيث يستيقظ الرجل صباحا يصلي شاكرا الرب لأنه لم يخلقه "امرأة"، بينما تصلي المرأة اليهودية كل صباح لتقول "أحمدك يا رب لأنك خلقتني وفق مشيئتك وإرادتك". ويضيء التاريخ ويكشف كيف "بنت الديانة المسيحية بعد اليهودية على أفكار مشابهة، جذورها واحدة".

الجنس الآخر

جاهدت نوال في كتابها "الأنتى هي الأصل" لتضع العربية أمام الحصان، وجادلت لتثبت ما لا يمكن إثباته؛ هل البيضة جاءت قبل الدجاجة، أم العكس؟ بالطبع لا يوجد عاقل واحد، سواء أنتى كان أم ذكرا، يجادل حول مقدار الظلم والاضطهاد الذي عانت منه المرأة. تماما مثلما لا يوجد عاقل يجادل حول قيمة المرأة، التي لا تنقص ولو مقدار ذرة من مكانة وقيمة الرجل. كانت نوال على حق عندما سخفت آراء عالم النفس سيغفوند فرويد حول المرأة، التي ركز فيها على أن عقدة الأنتى هي فقدان العضو الذكري. إلا أنها لم تكن على حق بتاتا عندما قالت إن المرأة هي الأصل. في علاقة الرجل بالمرأة لا يمكن

سن مبكرة لتحمل نوال العبء الكبير للعائلة.

رغم الظروف الصعبة تخرجت نوال من كلية الطب جامعة القاهرة في ديسمبر عام 1955 وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة وتخصصت في مجال الأمراض الصدرية، وعملت كطبيبة امتياز بالقصر العيني، وتزوجت في نفس العام من أحمد حلمي، زميل دراستها في الكلية. لم يستمر الزواج لفترة طويلة فانتتهى بعدها بعامين.

وعندما سئلت عنه في إحدى حواراتها قالت "زوجي الأول كان عظيمًا، زميلي في كلية الطب. كان رائعًا، والد ابنتي. بعد حرب السويس التي شارك فيها، أصيب بخيبة أمل وأصبح مدمنا، اعتقدت أن الزواج سيساعد على الخروج من حالة الإيمان، إلا أنه لم يقلع عن الشرب. وحاول في إحدى المرات قلتي، تحت تأثير الخمر، فاضطرت إلى تركه".

تزوجت نوال مرة ثانية من رجل قانون ولم يستمر هذا الزواج أيضا. خلال عملها كطبيبة في مسقط رأسها بقرية كفر طحلة، لاحظت المشاكل النفسية والجسدية التي تعاني منها المرأة، والناجمة عن الممارسات القمعية للمجتمع والأسرة. والصعوبات والتمييز اللذين تواجههما المرأة الريفية. وكنتيجة لمحاولتها للدفاع عن واحدة من مريضاتها من التعرض للتعفن الأسري، تم نقلها إلى القاهرة، لتصبح في نهاية المطاف المدير المسؤول عن الصحة العامة في وزارة الصحة.

في ذلك الوقت قابلت زوجها الثالث الطبيب الروائي الماركسي، شريف حطّات، الذي كان يشاركها العمل في الوزارة. وكان قد اعتقل وأودع السجن لمدة 13 عاما، في عهد الرئيس جمال عبدالناصر.

تاريخ نضالي جذب نوال إليه ليترزوج الأنتى في عام 1964. "كان رجلا حرا جدا" هكذا تصفه، وتتابع "عشت معه 43 عاما. قلت للجميع، هذا هو الرجل 'النسوي' الوحيد على وجه الأرض. ثم بعد ذلك اضطرت للطلاق أيضا. كان كاذبا. كان على علاقة بامرأة أخرى. عقدة الشخصية ذات الطابع الأبوي. ألف كتابا عن المساواة بين الجنسين، ثم خان زوجته. أنا متأكد أن خمسة وتسعين في المئة من الرجال يخونون زوجاتهم، وفي مصر تخون السيدات العاديات من الطلاق"، ومؤكدة "أنا غير عادية".

والحقيقة أن حكاية شريف ونوال تستدعي الكثير من الأسئلة؛ في عام 1964 تعارفا وسرعان ما تزوجا، هي "صاحبة مملوءة بأفكار الحركة النسوية والنضال"، وهو "هادئ رزين مسجون في عزلة الروحية".

وكان شريف قد وصفها يوما بقوله "نوال امرأة لا تستطيع أن تتعامل مع أي ضعف حتى لو كان ضعفا إنسانيا". ورغم أن المحيطين بالزوجين لم يتوقعوا أن يدوم الزواج أكثر من شهرين،

لا يوجد ما هو أخطر من الحقيقة في عالم مملوء بالكذب. ليس أفضل من هذه العبارة نفتتح بها الحديث عن نوال السعداوي، الطبيبة المصرية وعالمة النفس والشخصية النسوية والروائية المثيرة للجدل؛ والتي إن اختلفنا معها لا يسعنا إلا أن نحترمها.

2008، إسقاط الجنسية المصرية عن نوال السعداوي، في دعوى رفعها ضدها أحد المحامين بسبب آرائها.

الضغوطات والتهديدات التي تعرضت لها دفعتها للهجرة خارج مصر حيث قبلت عرضا للتدريس عام 1988، في جامعة ديوك وقسم اللغات الأفريقية في شمال كارولينا، وأيضا في جامعة واشنطن.

شغلت نوال العديد من المراكز المرموقة في الحياة الأكاديمية، سواء في جامعة القاهرة داخل مصر، أو خارجها، في هارفرد، بيل، كولومبيا، السوربون، جورج تاون، جامعة ولاية فلوريدا وكاليفورنيا. غابها عن مصر لم يدم طويلا رغم الإغراءات المادية والمعنوية، واختارت العودة إليها بعد 8 سنوات أي في عام 1996.

فور عودتها إلى مصر تابعت نشاطها السياسي، وفكرت في خوض تجربة الانتخابات في عام 2005، ولكن طلبها لم يقبل بسبب شروط التقديم. في عام 2011 خلال ثورة يناير، كانت نوال ضمن المظاهرات في ميدان التحرير وسط القاهرة. كما طالبت بإلغاء التعليم الديني في المدارس. ولكن، من نوال السعداوي، التي ماتت الدنيا وشغلت الناس، خلال نصف قرن؟

الرجل النسوي الوحيد

في حوار مع "الغارديان" البريطانية، قالت السعداوي إنها تمتد في طفولتها أن تصبح راقصة، وأحبت الموسيقى، وكانت جميلة، لكن والدها لم يحتمل ثمن شراء بيانو لها، فحول انتباهها بدلا من ذلك نحو القراءة والكتابة.

ولدت نوال في 27 أكتوبر عام 1931 لعائلة تقليدية ومحافظة بقرية كفر طحلة، إحدى قرى مركز بنها التابع لمحافظة القليوبية. كانت الطفلة الثانية من بين تسعة أطفال. تعرضت لعملية ختان وهي في السادسة من عمرها. رغم ذلك، أصر والدها على أن تتلقى التعليم، مثلها مثل جميع إخوتها وقد يكون مرد ذلك أن الوالد يعمل مسؤولا حكوميا في

وزارة التربية والتعليم. وكان والدها من الذين ثاروا ضد الاحتلال البريطاني لمصر والسودان، كما شارك في ثورة 1919، وعقابا له تم نفيه للعمل في قرية صغيرة في الدلتا وجرمانه من الترقية لمدة 10 سنوات. استمدت منه نوال احترام الذات ووجوب التعبير عن الرأي بحرية ودون قيود مهما كانت النتائج، كما شجعها على دراسة اللغات. توفى والدها في



«تايم» تختار نوال السعداوي من ضمن 100 شخصية الأكثر تأثيرا في العالم

علي قاسم

كاتب سوري مقيم في تونس



نتيجة لآرائها تم رفع العديد من القضايا ضدها من قبل الإسلاميين، مثل قضية الحسبة للتفريق بينها وبين زوجها، وتم توجيه تهمة "ازدراء الأديان" إليها، كما وضع اسمها على ما عرف بـ"قائمة الموت للجماعات الإسلامية". القصة بدأت منذ نصف قرن تقريبا، بالتحديد في عام 1972 عندما نشرت كتابا بعنوان "المرأة والجنس"، موجهة نقدا لآراء مختلف أنواع العنف الذي يمارس ضد المرأة، بدءا بالختان وما يحيط به من طقوس "وحشية" تقام في المجتمع الريفي لتأكد من عذرية الفتاة.

عند نقطة الصفر

سرعان ما تحول الكتاب إلى نص تأسيسي للموجة النسوية الثانية. ونتيجة لتأثيره الكبير على الأنشطة السياسية، أقيمت نوال السعداوي من مركز كانت تشغله في وزارة الصحة، لم يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل كلفها أيضا مركزها كرئيسة تحرير مجلة الصحة، وأمين مساعد في نقابة الأطباء المصريين.

في عام 1983 كانت شهرة نوال السعداوي، الروائية والكاتبة والمحللة نفسية والنشطة السياسية ذائعة، ليس فقط داخل مصر والوطن العربي، بل في عموم دول العالم. إلا أن هذا لم يحل دون إيداعها السجن يوم 6 سبتمبر 1981، في عهد الرئيس محمد أنور السادات. وأطلق سراحها في نفس العام بعد شهر واحد من اغتيال الرئيس السادات.

في علاقة الرجل بالمرأة لا

يمكن الحديث عن طرف

واحد هو الأصل، كل

منهما، المرأة والرجل،

هو الأصل

سجنت نوال في سجن النساء بالقناطر، وعند خروجها قامت بكتابة كتابها الشهير "مذكرات في سجن النساء". نشر في الأسواق عام 1983. لم تكن تلك التجربة الوحيدة لها مع السجن، فقبل ذلك بتسع أعوام كانت على اتصال مع سجينته المهتمتا رواية "امرأة عند نقطة الصفر" عام 1975.

كما رفضت محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة في مصر في 12 مايو